سنوات دهب فى أتنائها ما بقى من بصره ، حتى إذا كانت الأيام الأخيرة من ديسمبر ١٩٠٤ ودع رب السيف والقلم هذه الحياة الحافلة ، وسقط القلم من يده ، بعد أن كان السيف قد سقط منه منذ أكثر منها عشرين عاما ، وهوى النسر من فوق قمته الشامخة .

أتيحت للبارودى ثلاثة عوامل حققت له اتصاله بالتراث العربى ، وكونت له شخصية التراثية التى كانت المقوم الأساسى الذى قام عليه بناؤه الفنى ، والمادة الفنية الثرية التى اعتمد عليها فى حركته الإحيائية : حركة إحياء التراث التى نشطت نشاطا ملحوظاً مع ظهور المطبعة وإنشاء دار الكتب مما قدم للحياة الثقافية زادا وفيرا من أمهات الكتب التراثية التى كان حَبسُها قد طال فى المكتبات الثقافية ومكتبات المساجد ، ثم تردده على تركيا أكثر من مرة وإقامته فيها فترات طويلة منذ شبابه المبكر ، مما أتاح له فرصة التردد على مكتباتها وخزائنها التى تزخر بمخطوطات هذه التراث ونَسَخَ طائفة كبيرة من دواوين الشعراء ، ملأ بها حقائبه ، وحملها معه إلى مصر حين عاد إليها ، وقد قَدّمت له هذه الدواوين المادة التراثية التى جمع منها مختاراته التى تمثل روائع الشعر العربى ، فى سنوات النفى الطويلة ، وهى المختارات التى كانت العامل الثالث الذى كون له ثقافته التراتية .

حققت هذه العوامل الثلاثة للبارودى اتصالا واسعاً بالتراث العربى ترك بصماته فى أعماله الفنية على المستوى اللغوى والمستوى الأسلوبى والمستوى التصويرى ، فمعجمه اللغوى وصياغته الأسلوبية وصندوق أصباغه التصويرى تستمد مادتها من مناجم هذا التراث التى لا تَنْضَب ، ومعارضاته للشعراء القدماء التى تنتشر فى ديوانه انتشاراً واضحاً شاهد قوى على هذه الصلة التراثية ، وعلى تمثله الدقيق لمذاهب الشعراء القدماء ومدارسهم الفنية ، ويتراءى البارودى من خلال هذه المعارضات كأنه شاعر بدوى أو شاعر من المحافظين على عمود الشعر المتمسكين بتقاليده ، وإن لم يمنع هذا من ظهور